# أنطاكية مُلتقَى طُرُق الإيمان

في القرن الميلاديّ الأوّل، كانت أورشليم وأنطاكية وأفسس وسواها من المدن تضمّ جماعات مسيحيّة منتظمة في كنائس سريعة النموّ لكنّ تلك المدن لم تَدْرِ أنها كانت بمثابة الخطوة الأولى التي خطتها المسيحيّة في مسيرتها نحو الانتشار في شتّى أنحاء العالم المعروف وقتئذ. وكانت أنطاكية ملتقًى حيويًّا في تلك الرّحلة التي حملَت الإيمان إلى العالم حتّى يومنا هذا. كما أنّ موقع أنطاكية الجغرافيّ هيّأ لها أن تغدو بوتقة تنصهر فيها شتّى الحضارات، لأن القوافل التجاريّة القادمة من آسيا الصّغرى وبلاد فارس والهند وحتّى الصّين، كانت تمرّ في تلك المدينة التي يلتقي فيها المشرق والمغرب. زد على ذلك أن البضائع المتنوّعة كانت ترسَل إلى مستودعات ضخمة في أنطاكية، تمهيدًا لنقلها إلى السفُن الرّاسية في نهر العاصي.

وكانت القوى العظمى في ذلك العصر تتنافس للسيطرة على أنطاكية، ليس فقط نظرًا لموقعها الاستراتيجيّ، بل لسبب أهمّ وهو الازدياد المستمرّ لغناها ونفوذها. فاليونانيّون وَسَمُوها بطابعهم الحضاريّ من أدب وفلسفة. وكان من النتائج الحتميّة لتوسّع الامبراطوريّة الرومانيّة أنْ أصبحت أنطاكية معقلا حصينًا من معاقلها. وحتّى من قَبل أن تجعلها رومة عاصمة لإقليم سورية عام 64 م، كانت أنطاكية من الأماكن المفضّلة التي يرتادها الجنود الرّومانيّون.

والواقع أنّ الحضارة الرّومانيّة زادت أنطاكية رونقًا وترفًا ببناء سوق تجاريّة وساحة عامّة ومدرَّج لوسائل التّرفيه وحمّام للعموم وميدان لسباق الخيل وقناطر تحمل أقنية لنقل الماء إلى النّوافير والمباني العامّة والمنازل الفخمة القائمة في المدينة. ولا ريب أن أنطاكية كانت تستحقّ لقب "المدينة الذّهبيّة " الّذي أُطلق عليها نظرًا لثرائها وجمالها.

أمّا دينيًّا فكانت أنطاكية تحتضن جميع المعتقدات. فاليونانيّون كانوا يعبدون آلهة أوليمبوس. والجنود الرّومانيّون كانوا موالين لميترا معبود الفُرس. وكان في أنطاكية جالية يهوديّة كبرى تتكلّم اليونانيّة وتعبد إله إبراهيم. وكان أعضاؤها في معظمهم تجّارًا، لكنّهم كانوا يتركون دينهم على حدة في معابدهم على سفح جبل سِلْبِيوس ويقطنون في المنطقة الجنوبيّة من المدينة.

## أنطاكية في العهد الجديد

كان بطرس أوّل رسول وصل إلى أنطاكية. وكان يبشّرُ ويعتبره التّقليدأقدم كنيسة مسيحيّة، وهو يقع على منحدر الجبل فوق مقرّ الجالية اليهوديّة.

وعلى مقربة منه تمّ العثور عام 1910 على تحفة مشهورة هي "كأس أنطاكية" التي ظنّوا بدايةً أن السيّد المسيح استعملها في العشاء السرّيّ. لكن في وقت لاحق رجّح علماء الآثار أنّ تاريخ صُنعها يعود إلى ما بين القرنين الثّالث والسّادس. ومهما يكن من أمر تاريخها فإنّ الزّخارف المدهشة المنقوشة على غلافها الخارجيّ تشير إلى أن الإيمان المسيحي كان متأصّلا في قلوب صُيّاغ الفضّة الذين أبدعوها.

وكان المرتدّون إلى المسيحيّة في أنطاكية، من يونانيين ويهود، يتطلّعون بتوق إلى الكنيسة الأمّ في أورشليم، فلا عجب أن نرى قادةً كبارًا من أمثال برنابا يرافقون بطرس في جهودها التفسيريّة للكتاب المقدّس ولاهوتها في السّفر إليها لترسيخ وحدة الإيمان لدى إخوتهم هنالك. ويقول لنا القدّيس لوقا في أعمال الرّسل "إن أوّل ما دُعي التّلاميذ مسيحيّين كان في أنطاكية (11:26)." وعندما قام القدّيس بولس، الذي ولد في طرسوس على مسافة سفر يوم من أنطاكية، بزيارة المدينة، كان فيها جماعة مسيحيّة مزدهرة. كما كان المسيحيّون في أنطاكية، بفضل ما لديهم من ثقافة دينيّة متنوّعة، يناقشون مسائل عويصة حول الالتزام بأوامر الشّريعة اليهوديّة. فأرسلوا بولس وبرنابا إلى الرّسل والشّيوخ في أورشليم يسترشدون بهم. فانعقد مجمع أورشليم (أعمال الرسل 15: 1-35) وقرّر إعفاء الوثنّيين الذين يعتنقون المسيحيّة من التقيّد بالشّريعة الموسويّة.

وهكذا أصبح المسيحيّون يؤلّفون جماعة مستقلّة، غير مرتبطة بالجماعة اليهوديّة. ولا ريب أن مجمع أورشليم مهّد الطّريق أمام الكنيسة الجامعة. فقد عاد بولس وبرنابا إلى أنطاكية برسالة تتضمّن قرار المجمع. فأقام بولس سنتين في أنطاكية حيث تحوّلت غيرته الوقّادة الأولى إلى نار آكلة. وأضحت أنطاكية المدينة التي دعمت رحلاته التبشيريّة إلى الأمم الوثنيّة. لكنّ الرّحلة الثّالثة التي قام بها عام 57 لم تكتمل. فقد بلغ المسيحيين الذين كانوا ينتظرونه في أنطاكية أنّه اعتُقل واقتيد إلى رومة حيث استُشهد. وكذلك بطرس ختم رحلاته التبشيريّة بنيل إكليل الاستشهاد في رومة. وما برحت أنطاكية ذاتها أن تميّزت بشهدائها، عندما حاول الأباطرة الرومانيّون أن يمحوا الدّين الجديد من الوجود. ففي أواخر القرن الأوّل اتّقد غضب الأمبراطور الرومانيّ ترايانوس على المسيحيّين لرفضهم عبادة الأصنام الوثنيّة. فقُبض على إغناطيوس أسقف أنطاكية الثّالث واقتيد إلى رومة حيث حوكم وألقيَ للوحوش الضّارية فافترسته حيًّا. والجدير بالذكر أنه وهو في طريقه أسيرًا من أنطاكية إلى رومة كتب رسائل إلى المسيحيّين المنتشرين من الشّرق الأدنى إلى العاصمة الرّومانيّة يشدّد فيها عزائمهم ويحثّهم على الثّبات في الإيمان. أما الميزة الرئيسيّة لرسائله كلّها فكانت وحدة الإيمان عند جميع المسيحيّين. كما أن رسالته إلى أهل إزمير تنطوي على أوّل إشارة في التّاريخ إلى "الكنيسة الكاثوليكيّة" .

وكان دأبه الحثّ على وحدة الصفّوف بين المؤمنين والأسقف وضرورة الطّاعة لسلطته. كما كان يعلّم بَتُوليّة السيّدة العذراء ويسمّي الافخارستيّا أو القربان المقدّس "جسد المسيح" و"إكْسير الخلود". وما انفكّ اللاهوتيّون طوال القرون اللّاحقة، في أنطاكية وسواها، يناقشون المسائل التي أثارها إغناطيوس في رسائله وحذّر فيها المؤمنين من مغبّة الخلاف.

## أنطاكية في عهد الأمبراطوريّة المسيحيّ

بقيت أنطاكية محتفظة بمكانتها كأهمّ مدينة في الشّرق الأوسط طوال الحكم الرّوماني. ففي عام 297 جعلها الإمبراطور ديوكليسيانوس عاصمة "أناتوليا" (الأناضول) أي الإقليم الشّرقي وهو مقاطعة مدنيّة تمتدّ من قبرس إلى ما بين النّهرين. وعقب تدمير أورشليم عام 70 م أصبحت أنطاكية محور النّفوذ المسيحيّ في الشّرق. وفي وقت لاحق نال رئيس أساقفتها لقب "بطريرك". زد على ذلك أن احتدام المناقشات اللاهوتيّة في أنطاكية حوّلها إلى مركز فكريّ مرموق. فلعبت "مدرسة أنطاكية" دورًا بارزًا في الفكر اللاهوتيّ وبذلك اكتسبت الكنيسة النّاشئة غنًى فكريًّا حاسمًا. ويرى المؤرّخون أن لوقيانوس الأنطاكيّ هو الذي أسّس تلك المدرسة حوالى 270، مع أنّ كثيرًا من المفكّرين علّموا فيها قبله. ذلك أنّ تعليمه تضمّن اتّجاهًا واضحًا للمدرسة في جهودها التفسيريّة للكتاب المقدّس ولاهوتها المسيحانيّ. فخلافًا لما امتازت به "مدرسة الاسكندريّة" بقيادة أوريجينيس في مضمار التأويل الرّمزي للكتاب المقدّس ، بقيت "مدرسة أنطاكية" متمسّكة بالتأويل الحرفيّ. وفيما كان اللاهوتيّون الإسكندريّون يبرزون أُلوهة المسيح، كان اللاهوتيّون الأنطاكيّون

منهمكين في مناقشة ناسوته. فذيوذورس الطّرسوسيّ واصل أبحاثه في الطبيعتين الإلهيّة والبشريّة للمسيح فكان حافزًا لتلاميذه اللّامعين، لا سيّما يوحنّا الذهبيّ الفم وثيوذوروس الموبسُوِيستيّ. ولا بدّ أن نذكر بين تلاميذ لوقيانوس، آريوس الاسكندريّ، صاحب البدعة الآريوسيّة القائلة إنّ الآب وحده، بين الأقانيم الثلاثة، هو إله كامل. وقد أدّت المنازعات اللاهوتيّة بشأن العلاقة القائمة بين لاهوت المسيح وناسوته إلى انشقاق الجماعة المسيحيّة. ففي عام 431 دان مجمع أفسس نسطوريوس فاضطرّ أتباعه إلى مغادرة الامبراطوريّة الرومانيّة ووجدوا ملجأ لهم في أحضان الكنيسة الآشوريّة. كما دان مجمع خلقيدونية في عام 451 أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة فأدّى ذلك إلى انقسام جديد في الكنيسة. وعمد الأنطاكيّون السّريان الذين رفضوا مجمع خلقيدونية إلى تأسيس الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، بينما أمسى الأنطاكيّون النّاطقون عمومًا باللغة اليونانيّة، المؤيّدون للمجمع، يُدعَون ملكيّين. وبعد ذلك بقرنين قام الرهبان النّاطقون بالسّريانيّة في دير مار مارون بتأليف سلطة دينيّة خاصّة بهم، هي البطريركيّة المارونيّة. واستمرّ هذا الاختلاط المذهبيّ حتّى يومنا، فأصبح الكرسيّ البطريركيّ الانطاكي متنازَع بين الموارنة وكلّهم كاثوليك، والسّريان الأرثوذكس، والرّوم الأرثوذكس، والرّوم الملكيّين الكاثوليك.

وكانت أنطاكية أيضًا مركزًا نسكيًّا وليترجيًّا وتبشيريًّا طوال هذه الحقبة. فازدهرت الأديار والمناسك في المناطق القاحلة من سورية وجبال كيليكية ولبنان. ومن انطاكية انتشرت الحركات التبشيريّة فأسفرت عن إنشاء بطريركية في كل من جورجيا وبلاد فارس. وحتى يومنا هذا لا يزال المسيحيّون الملابار في السّاحل الجنوبي الغربيّ من الهند ينتمون إلى "الكنائس السّريانيّة". أمّا التقليد اللّيترجيّ الأنطاكيّ المرتبط ارتباطًا وثيقًا بيوحنّا الذهبيّ الفم ويوحنّا الدّمشقيّ وروماننوس المرنّم فقد انتقل إلى القسطنطينيّة حيث كان له تأثير حاسم في طريقة العبادة البيزنطيّة.

ولكن في القرون الخمسة التالية أخذت أنطاكية تفقد تدريجيًّا مكانتها الأولى، لأنّ المنازعات المتعلّقة بطبيعة المسيح أدّت إلى انشقاق الجماعة المسيحيّة وفقًا لأصلها العرقيّ المزدوج، بين يونانيّين وسوريّين. فكانت الكنيسة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة تتوقّع من القسطنطينيّة المساندة والتّوجيه. وعليه أخذت بطريركيّة أنطاكية ألأرثوذكسيّة تعتمد اعتمادًا متزايدًا على كنيسة القسطنطينيّة. وفي القرن الخامس نشب حريق مريع دمّر المدينة، كما أصيبت بهزّات أرضيّة عنيفة. غير أن السبب الحاسم في زوال أهميّتها كمركز حضاريّ انّما كان الفتح العربيّ الإسلاميّ في القرن السابع الميلاديّ.

وقد شهدت أنطاكية في القرون السّتّة التالية حركة مدّ وجزر متعاقبة، فالمدّ كان اجتياحًا والجزْر تحرّرًا. فكان الاجتياح على يد البزنطيّين عام 989، فالاتراك السّلجوقيّين عام 1071، فالصّليبيّين عام 1098 فالفاتح بيبرس عام 1268. وكان أشد هذه الاجتياحات تدميرًا لكنيسة أنطاكية اليونانيّة احتلالها من قِبَل الصّليبيّين الذين قاموا بفرض بطريرك وأساقفة لاتين عليها فأسفر ذلك عن قيام أساقفة الرّوم الأرثوذكس في معظم القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر بالنّزوح من كيليكية والقسطنطينيّة إلى آسيا الصّغرى، من جرّاء تعرّض أبرشياتهم إلى موجات متتالية من السّلب والنّهب. وأخيرًا في عام 1366 قام بطريرك الروم الأرثوذكس بنقل كرسيّه نهائيًّا لى دمشق ولم يحتفظ بلقبه كبطريرك أنطاكية إلا للذّكرى والتّاريخ وتخليد ما كان لتلك المدينة العريقة من أمجاد غابرة.

أمّا اليوم فقد تحوّلت أنطاكية من "مدينة الله العظمى " إلى مدينة صغرى تقع في جنوب تركيا الحاليّة، لأنها اقتُطِعَت من سورية عقب الحرب العالميّة الأولى وما تلاها من إعادة توزيع الشعوب الذي أجرته الدّول الغربيّة. فقامت شقق سكنيّة حديثة على مواقع المنازل الفخمة القديمة. بيد أنّ تراث أنطاكية لا ينحصر في أطلالها. فهو لا يزال يضرب أصوله في الأعماق، ومهما امتدّت فروعه الوارفة بعيدًا، الاّ أنّها تبقى متّصلة بالكنيسة الأمّ الواحدة. أمّا الورثة فهم أولئك المسيحيّون الذين واظبوا عبر القرون على أن يعيشوا الحقيقة الكامنة في حبّة الخردل التي غرسها رسل المسيح.

من مقال الأخت جين دايفد فينليه
وقد تمّ نشرها مسبقًا في مجلّة النير إيست.
العدد الحادي عشر، الرقم ثلاثة
(خريف، 1985)، معاد الطبع بعد الإذن

# أنطاكية:
# مُلتقَى طُرُق
# الإيمان.

مكتب الخدمات التربوية
لأبرشيّة نيوتن الملكيّة
http://mekite.org/

الصور عن الموقع الإلكتروني
http://LifeintheHolyLand.com/